ابن باديس بين سراب فرنسا الديمقراطية وحقيقة فرنسا الاستعمارية

د. أحمد صاري
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

مقدمة:

لقد حل الاستعمار الأوربي بالبلدان العربيةـــالاسلامية وبقارات إفريقيا، آسيا، وأمريكا اللاتينية بوجهين؛ وجه ظاهري وهو الذي احتلت به هذه البلدان بدعوى تحضيرها وترقيتها وتطوير شعوبها، واستمرت هذه الدعاية طيلة الفترة الاستعمارية لتبرير الممارسات الاستعمارية ومحاولة إجهاض كل حركة احتجاجية تطالب بحقوقها وباستقلالها. أما الوجه الآخر الذي ظهر به الاستعمار في مختلف هذه القارات فهو الوجه الحقيقي الذي تميز بالاستغلال وبكبت الحريات وبالتسلط والسيطرة على هذه الشعوب.

ويظهر أن العديد من قادة الرأي العام في هذه المستعمرات قد انخدعوا بالمبادئ والشعارات التي جاءت بها الدول الأوربية المستعمرة وانتظروا إلى آخر لحظة انتصار هذه المبادئ على الواقع الاستعماري الظالم إلا أن انتظارهم طال و لم يجديهم التعلق

بهذه المبادئ في تغيير صورة الاستعمار. ثم جاءت بعد ذلك ساعة الحسم لتبين الصورة الحقيقية للمستعمر والتلاحم الوثيق بين المستوطنين ومسئوليهم في المتروبول، وهذا ما حدث بالفعل مثلا للقضية الجزائرية.

ومن بين المبادئ التي شكلت مصدر الهام وقوة إعجاب كبيرة بالنسبة للشعوب المستعمرة أو على الأقل لنخبها مبادئ الثورة الفرنسية (1789) المتمثلة في شعارات الحرية، المساواة والأخوة. ولم تكن هذه المبادئ معروفة قبل مجيء الاستعمار الأوربي إلى البلدان العربية ـــالإسلامية، وهذا لا يعني انه لا توجد في هذه البلدان مبادئ تقابلها أو هي أسمى منها. غير أن هذه الأفكار الجديدة لم تتغلغل بسهولة بالرغم من وجود الاستعمار ومؤسساته، ولم تتأثر بها سوى نسبة ضئيلة جدا من المجتمع العربي ـــالإسلامي وهي فئة النخبة. ولم يتم ذلك إلا بعد مرور فترة طويلة تمكنت فيها المدرسة وبقية المؤسسات الثقافية الفرنسية الأخرى من صقل وتكوين فئة متشبعة إلى حد ما بالأفكار والشعارات التي كانت تنادي بها الثورة الفرنسية، حتى وإن كان النظام الاستعماري، بما يحمله من قوانين تعسفية ومن سياسة عنصرية اتجاه الأهالي، يعتبر نقيضا لهذه الشعارات في حد ذاتها.

وهذا لا يعني أن أفكار الثورة الفرنسية قد وصلت عن طريق الاستعمار فقط، فبعض البلدان العربية كانت قد تعرفت على هذه الأفكار قبل ذلك، وقد ظهر هذا التأثر في كتابات بعض السياسيين والمفكرين آنذاك[1]. ففي ما يتعلق بتونس فإن

[1] حـــول مـــدى انتشار أفكار الثورة الفرنسية بالمنطقة العربية التركية أنظر العدد الخاص الذي خصص لهذا الموضوع بمجلة العالم الإسلامي والبحر بمناسبة الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية "المتوسط:
"Les Arabes, Les Turcs et la Révolution française », In *Revue du Monde musulman et de la Méditerranée*. Edisud, 1989.

إحدى الدراسات حول "النخبة التونسية والثورة الفرنسية ... "[1] قد بينت أن المصلح المعروف خير الدين باشا وقبله المؤرخ أحمد بن أبي الضياف قد تأثرا بأفكار الثورة الفرنسية[2]. وهو نفس الإعجاب الذي نجده في ما بعد عند المصلح بشير صفر الذي "عبر بكل وضوح عن إعجابه بفرنسا الثورة التي حاربت من أجل حرية وحقوق الإنسان"[3]. وحتى بالنسبة للوطنيين التونسيين الذين تجمعوا حول جريدة **التونسي**، وبالرغم من الاضطهاد الاستعماري والنفي إلا انهم لم يفقدوا الثقة في المبادئ العالمية للثورة الفرنسية[4]. وهذا التأثر قد ينطبق أيضا على بعض البلدان العربية الأخرى التي كانت قد شهدت منذ منتصف القرن التاسع عشر نهضة أدبية وفكرية، ونخص هنا بالذكر بلاد الشام ومصر.

أما الجزائر التي كانت من البلدان العربية الأولى التي سقطت في يد الاستعمار فإنها لم تتأثر بمبادئ وشعارات الثورة الفرنسية إلا مع نهاية القرن التاسع عشر، أي بعد مرور نصف قرن تقريبا على الاحتلال، وذلك بعد انتشار التعليم الفرنسي وتخرج الدفعات الأولى من أبناء الجزائريين من المدارس الفرنسية. غير أن نفوذ مبادئ الثورة الفرنسية إلى فئة من المجتمع الجزائري لم يتم إلا مع حركة الشبان

---

[1] Hafnaoui Amairia:« Elite tunisienne et révolution française de khaireddine aux «Jeunes Tunisiens » ». In. *Revue d'Histoire Maghrébine*, n°87-88, mai 1997. pp. 253-263.

وأنظر أيضا:

Hedia Khadhar: « La révolution française, le Pacte fondamental et la première Constitution tunisienne de 1861 ». In. *RMMM*, 1989, pp. 132-137.

[2] H. Amairia, art. cité, pp. 257-259

[3] المرجع نفسه، ص 261.

[4] المرجع نفسه، ص 263.

الجزائريين منذ بداية القرن العشرين. فأمام الوضع الاستعماري الذي حرمهم من التمتع بأدنى الحقوق وأخضعهم لقوانين استثنائية جائرة لم يجد هؤلاء من سبيل للدفاع عن أنفسهم والمطالبة بحقوقهم إلا بالاستنجاد بفرنسا " الديمقراطية"، أي في نظرهم فرنسا الحرية، العدالة وحقوق الإنسان. وقد أعتقد هؤلاء الشبان أن فرنسا المتربول هي أحسن من يدافع عن هذه المبادئ والشعارات، ولذلك فكثيرا ما كانوا يستنجدون بها ضد فرنسا الاستعمارية في الجزائر. وقد تشكل لديهم نتيجة لهذا الفهم ما يسمى بسراب فرنسا ذات الوجهين (Le mythe des deux France)؛ فرنسا الاستعمارية بقوانينها ومعاملاتها المبنية على التسلط، الحرمان والتعسف اتجاه الأهالي وفرنسا المتربول التي اختلطت عليهم بفرنسا المثالية فرنسا ثورة 1789 بمبادئها في الحرية والعدالة والأخوة. وكانوا كلما تعرضوا لظلم السلطات الاستعمارية بالجزائر أو رفضت مطالبهم من قبلها إلا واستنجدوا بفرنسا المتربول وطالبوها بالتدخل لرفع الظلم وأنصافهم ضد فرنسا الاستعمارية.

ومن بين الشبان الجزائريين الذين تأثروا أكثر بمبادئ الثورة الفرنسية نذكر بعض الشخصيات السياسية التي تأثرت بالجو المدرسي الذي كان سائدا آنذاك وبما كانت تتلقاه على أيدي المدرسين والكتب المدرسية التي كانت تصور لهم فرنسا تصويرا مثاليا إن لم نقل خياليا. وقد نقل لنا فرحات عباس جانبا من هذا الجو بقوله "أن كتبنا كانت تصور فرنسا كرمز للحرية. ففي المدرسة كنا ننسى جراح الشارع وبؤس الدواوير لنتركب مع الثوار الفرنسيين وجنود العام الثاني طرق

التاريخ الكبرى".[1] ولذلك فقد اصبح هؤلاء يتغنون بمبادئ الثورة الفرنسية ويذكرون بها في كل مناسبة مطالبين الحكومات الفرنسية المتعاقبة بتحقيقها. ومن بين الذين نظروا الى فرنسا هذه النظرة وانتظروا منها تحقيق شعاراتها وظهر ذلك في كتاباتهم نذكر بالخصوص من بين المثقفين والكتاب الشريف بن حبيلس صاحب كتاب **الجزائر الفرنسية كما يراها أهلي (1914)**[2]، وفرحات عباس صاحب كتاب **الشاب الجزائري (1931)**[3] والسعيد فاسي **الجزائر تحت قيادة فرنسا ضد الإقطاع الجزائري (1936)**[4]. وحتى الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر وزعيم المعارضة الإسلامية في بداية العشرينات، كان يفرق بين فرنسا الاستعمارية وفرنسا الديمقراطية. فهو أمام الصعوبات التي واجهته في الجزائر من طرف المستوطنين والإدارة الاستعمارية فكر في التوجه بمطالبه مباشرة نحو فرنسا إذ يقول:"إن المندوب المسلم المنتخب ليتجه بأنظاره الآن بعد خيبته وفشله إلا إلى فرنسا، إلى الوطن الأم واليها فقط."[5]. وقد عبر مجددا عن إعجابه بفرنسا في الخطاب الذي ألقاه أمام رئيس الجمهورية الفرنسية مليران عند زيارته للجزائر في

---

[1] Ferhat Abbas, *La Nuit coloniale*. René Julliard, Paris, 1962, p. 114.

[2] Chérif Benhabilès, *l'Algérie vue par un Indigène*, préf. de Georges Marçais. Imp. Fontana, Alger, 1914.

[3] F. Abbas, *De la Colonie vers la province. Le Jeune Algérien*, La Jeune Parque, 1931 (2° Ed. Garnier, 1981).

[4] Said Faci, *l'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalité algérienne*, préface de Maurice Viollette. Librairie du régionalisme, 1936.

[5] جريدة الإقدام، عدد 28، يناير 1921. ذكره محفوظ قداش، الأمير خالد، وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجزائرية-المؤسسة الوطنية الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1987، ص 42.

أفريل 1922، إذ يقول:"أنه بعد قرن من الحياة المشتركة لا يمكننا الاستغناء عن فرنسا وعن حكومتها المنظمة والسلم الذي توفره لنا..."[1] والمتتبع لكتابات فرحات عباس قبل تبنيه الفكرة الوطنية، أو حتى لكتاباته التي ظهرت في ما بعد، يلاحظ انه لم يفقد الأمل الى آخر لحظة في انتظار تدخل "فرنسا الحقيقية" لفرض سلطتها وسياستها على فرنسا الاستعمارية وتحقيق الحلم الذي طالما حلم به هو وزملاؤه. غير أن ذلك لم يتم وظهر له في الأخير بوضوح تحالف فرنسا بوجهيها الاستعماري والمتربولي ضد الجزائريين. وتبين أن فرنسا المتربول التي كان ينظر إليها على أنها فرنسا الحقيقية ما هي في واقع الأمر إلا سراب وظهر الوجه الحقيقي لها عندما ضمت صوتها إلى صوت فرنسا الاستعمارية.

وإذا كانت النخبة الجزائرية المثقفة ثقافة فرنسية قد أخطأت التقدير وتشكلت لها هذه الصورة المثالية عن فرنسا نتيجة لتأثيرات المدرسة والثقافة الفرنسية والمحيط، خاصة بالنسبة للذين زاولوا تعليمهم بفرنسا، فإن تشكل نفس هذه الصورة في مخيلة النخبة الجزائرية المثقفة ثقافة عربية التي لم تعرف المدرسة الفرنسية إطلاقا وغريبة كلية عن الثقافة الغربية يطرح أكثر من سؤال.

ومن بين الشخصيات التي تكونت لديها هذه الصورة المزدوجة عن "فرنسا الاستعمارية/ فرنسا الديمقراطية" وظهر ذلك جليا في كتاباتهم الشيخ عبد الحميد بن باديس. فالكثير من مقالاته في الشهاب وفي البصائر، ومواقفه منذ العشرينات إلى غاية وفاته في سنة 1940 تزخر بالأمثلة على ذلك وتدل على انه كان غالبا ما

[1] l'*Ikdam*, 28 avril 1922, في المرجع نفسه، ص 107

يفرق بين سياسة السلطات الاستعمارية في الجزائر وسياسة الحكومات الفرنسية في باريس، هذا وإن كان موقفه لم يبق ثابتا فقد خضع لتطور الزمن ولتبدل الحكومات والسياسات الاستعمارية الفرنسية، كما تطور أيضا مع تطور الحركة الوطنية ومطالبها.

والمعروف عن ابن باديس انه لم يدخل المدرسة الفرنسية قط و لم تكن له ثقافة فرنسية يكون من خلالها قد تأثر بالروح الفرنسية ومبادئ ثورتها. وإذا كانت فرنسا الاستعمارية ماثلة يوميا أمامه فمن أين يكون قد استمد مصادر ثقافته بوجود فرنسا "الأخرى" بمبادئها في العدالة والمساواة وحقوق الإنسان. ولذلك اختلفت الآراء في تقييم مواقف ابن باديس نتيجة لمواقفه المتشددة مع السلطات الاستعمارية في الجزائر والمتسامحة مع السلطات الفرنسية بباريس. فقد أعتبره البعض مواليا لفرنسا وحتى "اندماجي" بالمقابل اعتبره آخرون معارض لها مطالب بالاستقلال. غير أن المتمعن جيدا في كتابات ـــنصوص ـــ ابن باديس يلاحظ انه كان دائما يفرق بين فرنسا الحقيقية (الديمقراطية ـــالمثالية) وحكومتها في الجزائر، وهو الشيء الذي لم ينتبه إليه العديد من الدارسين المتسرعين في أحكامهم عندما لم يميزوا بين مختلف مواقف ابن باديس.

مبادئ تعامل ابن باديس مع فرنسا:

إن ابن باديس في مواقفه من السياسة الفرنسية بمختلف أوجهها سواء كانت صادرة عن الحكومات الفرنسية المتعاقبة أو عن ممثليها في الجزائر ينطلق من بعض المبادئ العامة التي كان قد حددها منذ بداية نشاطه الإصلاحي والصحفي سنة 1925. ولذلك فإن مواقفه لا تخضع في أغلب الأحيان للظروف ولتقلبات

السياسة. فهو منذ إصداره للعدد الأول من جريدة المنتقد نجده يحدد العلاقة التي يجب أن تربط الجزائر بفرنسا. فقد كان شعار هذه الجريدة "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء، ولذلك فهو يتأرجح في حكمه على السياسة الفرنسية في الجزائر بين الاعتراف والتقدير أحيانا والنقد والتهجم أحيانا أخرى. فقد كتب في افتتاحية العدد الأول من هذه الجريدة يقول:"...إن لفرنسا ما يناهز القرن في الجزائر ولا أحد ينكر ما لها من الأيادي في نشر الأمن وعمارة الأرض وجميع وجوه الرقي الاقتصادي غير أنها ـــ ويا للأسف ليست لها تلك الأيادي ولا نصفها في تحسين حال الأهالي العلمي والأدبي، مع أن الذي يناسب سمعة فرنسا ومبادئها، ويصدق ما ينادي به خطباؤها، ويكون الجمع للقلوب عليها هو أن تعنى بالعباد كما تعنى بالبلاد.". ثم يبرز بعد ذلك ضعف الجزائر وحاجتها إلى أمة قوية وهي الأمة الفرنسية من أجل أن تسير بها نحو التقدم فيقول:"إن الأمة الجزائرية أمة ضعيفة ومتأخرة فترى من ضرورتها الحيوية أن تكون في كنف أمة قوية عادلة متمدنة لترقيتها في سلم المدنية والعمران، وترى هذا في فرنسا التي ربطتها بها روابط المصلحة والوداد، فنحن نخدم للتفاهم بين الأمتين، ونشرح للحكومة رغائب الشعب الجزائري، ونطالبها بصدق وصراحة لديها، ولا نرفع مطالبنا أبدا إلا إليها، ولا نستعين عليها إلا بالمنصفين من أبنائها ـــ وفي جدنا وإخلاصنا وشرف الشعب الفرنسوي وحريته ما يقرب كل أمل بعيد."[1]. والحقيقة أن تعامل ابن باديس مع الحكومات الفرنسية وممثليها بالجزائر بقي يخضع لهذه الثوابت إلى ما بعد المؤتمر

[1] المنتقد، ع. الأول، 02 جويلية 1925.

الإسلامي الجزائري (جوان 1936) عندها بدأ ابن باديس يشك في إمكانية الحكومة الفرنسية وصدقها في فرض سلطتها على مستعمري الجزائر والاستجابة لمطالب الجزائريين التي خرج بها المؤتمر الإسلامي.

ولم يتردد ابن باديس في مناسبات عديدة من التذكير بالمبادئ العامة لسياسة العلماء التي جاءت في افتتاحية العدد الأول من المنتقد فقد نقلها في افتتاحيات الأعداد الأولى من جرائد الشهاب (1925) السنة (1933) الشريعة (1933) والبصائر (ديسمبر 1935). كما ذكر بها في "كلمته الصريحة" التي رد فيها على فرحات عباس، وحدد علاقة الجزائر بفرنسا في التبعية الجغرافية والسياسية، غير أنه أكد على استقلال الجزائر من الناحية القومية والجنسية عن فرنسا[1]. وفي هذا الصدد يقول علي مراد أن التأكيد المزدوج (الثنائي) للقومية العربية من جهة والولاء نحو فرنسا من جهة أخرى لم يكذب أبدا، على الأقل قبل أن ييأس المصلحين مطلقا من الليبرالية السياسية للجمهورية الفرنسية[2]. ونتيجة لذلك فقد مرت علاقة ابن باديس والعلماء بصفة عامة بالحكومات الفرنسية وممثليها بالجزائر بعدة أطوار خضعت من جهة لتطور الحركتين الإصلاحية والوطنية، ومن جهة أخرى لتطور السياسة الفرنسية نحو الجزائر.

فمنذ بداية نشاطه كان ابن باديس يفرق بين فرنسا الديمقراطية الممثلة في حكومتها بباريس وبين فرنسا الاستعمارية وممثليها بالجزائر. وفي هذا الصدد فإن

[1] الشهاب، أفريل 1936.

[2] Ali Merad, *Le Réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940. essai d'Histoire religieuse et Sociale*, Mouton, Paris-La Haye, 1967, p. 396.

ابن باديس غالبا ما كان يستغل تصريحات وكتابات بعض المسئولين والكتاب الفرنسيين سواء منهم المعارضين للقضية الجزائرية أو المؤيدين لها ليعبر عن رأيه وموقفه من فرنسا. ففي رده على مقال لأحد كتاب جريدة الطان *Le Temps* الذي اتهم فيه الشعوب الشرقية بمعاداة الغرب يرد ابن باديس:"إننا نعرف جميل فرنسا، ولا نجهل فرنسا الديمقراطية جميلنا ايضا ـــلكن أمثال هذا الكاتب المتعصب يتجاهلونه، فلتسمح لنا فرنسا أن نعرفه بشيء منه..."[1]. ويعتقد ابن باديس أن أمثال هؤلاء الأشخاص المعادين لهم يشوهون صورة الجزائريين لدى فرنسا ويغالطون المسئولين الفرنسيين الحقيقيين من معرفة حقيقة الجزائر يعارضون كل إصلاح تريد فرنسا القيام به في الجزائر.

ولم يكن ابن باديس معارضا باستمرار لممثلي الحكومة الفرنسية بالجزائر. فموقفه من أي حاكم يتوقف على مدى تقرب هذا الأخير من الأهالي والعناية بهم وبدرجة أقل على التوجه السياسي للحاكم. ولذلك نجد ابن باديس كثيرا ما يثني على الحاكم العام موريس فيوليط الذي تولى إدارة حكومة الجزائر ما بين سنتي 1925 و1928. فعلى الرغم من أن جريدة المنتقد قد أوقفت في عهد هذا الحاكم العام بعد 18 عددا من صدورها، إلا أن ابن باديس لم يخف إعجابه بالسيد فيوليت الذي يعتبره كأحسن من مثل وجه فرنسا الديمقراطية بالجزائر. فهو يخاطبه مثلا عندما كثرت انتقادات المستوطنين ضده:"لا نجهل أن الروح "الديمقراطية والنفس "الاشتراكي" اللذين نفثتم بهما في خطاباتكم السابقة لا تتحملها الروح

[1] المنتقد، 25 أكتوبر 1925.

الاستعمارية المستولية على أكثرية الفرنسويين بالجزائر. فطبعا وقعت مصادمة، ثم لن يكون القوم على مباديهم الاستعمارية أشد منكم محافظة على مباديكم الاشتراكية الديمقراطية، فإذا كنا نشك أن تزعزعوهم فإنا لا نخاف ـــ بثقتنا فيكم ـــ أن يحولوكم، ولكم عليهم بعد قوة الحق وعصبة الشمال.". ثم يؤكد اعتمادا على خطاب للسيد فيوليت بأنه لا يتحكم إلا لفرنسا وحدها:"أما نحن فهذه الخطة هي بغيتنا، فإننا نريد الحكم لفرنسا بالروح الفرنسوية وروح الأخوة والعدالة والمساواة ونتفر من كل من يخالف هذه الروح، ونمقت كل من يعمل عملا أو يحكم حكما يدنس طلعتها ويشوه سمعتها كائنا من كان، فلهاذا نسجل هذه الكلمة بمداد الثناء والإعجاب لجناب الوالي العام."[1].

وفي نظر ابن باديس فإن هذا الوالي العام الذي يهتم بالجزائريين في بعض أهم الميادين كالصحة والتعليم يعبر بحق عن مبادئ فرنسا الحقيقية رغم المعارضة التي يلقاها من الأوساط الاستعمارية[2] . وإذا كان ابن باديس يشيد باسم هذا الوالي العام، فانه يدرك معارضة الحزب الاستعماري له، الذي يرفض أي مشروع يكون في صالح الأهالي، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالتمثيل النيابي. ويرى ابن باديس أن هذا الحزب الاستعماري يسيء الى سمعة فرنسا ومكانتها، وينفي عليه تمثيله لفرنسا الحقيقية. يقول في رده على مؤتمر رؤساء البلديات الذي عقد بالجزائر العاصمة والذي رفض التمثيل النيابي للأهالي في البرلمان:" أحسبتم أن فرنسا التي راعيتم مصلحتكم قبل مصلحتها وخدمتم غايتكم دون غايتها ترضى منكم هذا العداء

[1] الشهاب، 08 أفريل 1926.

[2] الشهاب، 12 جويلية 1926.

الظالم والحيف الممقوت؟ خاب ظنكم في مرغمة القياصرة، ومحررة الشعوب". ثم يبين كيف أن هؤلاء يشوهون وجه فرنسا الحضاري بأعمالهم هذه :"ونحن ـــ كقوم مرتبطين بفرنسا يحبون لها الخير ـــ نصارحكم بإنكار آخر وتقبيح لنياتكم الاستعمارية البحتة التي تؤذون بها سمعة فرنسا، وتخلقون بها لها الأعداء في العالم الشرقي والإسلامي، وتعرقلون مساعيها التمدينية في العالم وتجرون عليها وعلى الشعوب المرتبطة بها البلايا والمحن."[1].

والظاهر انه قبل الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر وتبخر آمال الجزائريين في الوعود والإنجازات التي كانوا ينتظرونها من هذا الحدث الهام كان ابن باديس يأمل كثيرا في السياسة الفرنسية في الجزائر. ويبدو أنه افرط، كما افرط غيره، في تصديق وعود الحكومات الفرنسية. فهو ينصح مثلا في مقال له بعنوان "أيها المسلم الجزائري" هذا الأخير:"حافظ على مبادئك السياسية، ولا سياسة لك إلا سياسة الارتباط بفرنسا والقيام بالواجبات اللازمة لجميع أبنائها، والسعي لنيل جميع حقوقهم، فتمسك بفرانسا العدالة والأخوة والمساواة فإن مستقبلك مرتبط بها." ويعطي ابن باديس الأمل "للمسلم الجزائري" في الحصول على حقوقه بعد أن تعرفه فرنسا على حقيقته:"فتعطيك حينئذ فرنسا جميع الحقوق كما قمت لها بجميع الواجبات وتحيا حياة طيبة كجميع أبناء العالم العاملين المخلصين."[2]. والظاهر أن هذه النظرة المثالية المتفائلة في خطاب ابن باديس تعود الى تأثره وإيمانه بمبادئ الثورة الفرنسية التي يعتقد أنها تعود في أساسها إلى أصول إسلامية، فقد جاءت لتحرير

[1] الشهاب، 03 جوان 1926.

[2] الشهاب، 23 أوت 1926.

الإنسان من العبودية كما حرر الإسلام الإنسان من رق الوثنية. وما يؤكد هذا التقاطع بين شعارات الثورة الفرنسية والمبادئ الإسلامية هذا المقطع في العدد الأول من الشهاب يقول فيه ابن باديس :"وقف "المتقد" فها هو أخوه "الشهاب". "شهاب" في سماء الحرية والأخوة والمساواة، أصول شيدها الإسلام ومات في سبيلها أبناء فرنسا الأحرار، فبقيت شعارها أينما حلت رايتها المثلثة الألوان."[1]. ولذلك فكثيرا ما أشاد ابن باديس، حتى خلال الثلاثينات عندما ساءت علاقات الجمعية بالحكومات الفرنسية وممثليها في الجزائر بالثورة الفرنسية وبقي يحمل نوعا من التبجيل ليوم 14 جويلية عيد الحرية. فهو بنبرة مثالية يشيد بهذا اليوم ويذكر بتضحيات الشعب الفرنسي :"يا فرنسا أم الحرية. إن الجزائريين الذين يشعرون معك في أفراحك وأحزانك، يحتفلون معك بعيد حرية أبنائك ـــ يريدون منك ما يجعلهم يشعرون بأنهم أفراد مساوون لإخوانهم الآخرين.". وفي اعتقاد ابن باديس فإن عدم حصول الجزائريين على حقوقهم وعدم سماع صوتهم من طرف فرنسا يعود إما إلى وقوف فئة من المستعمرين لهم بالمرصاد ومنعهم من تبليغ رسالتهم إلى فرنسا الحقيقية أو إلى أن هؤلاء يوصلونها محرفة، كما يمنعون بذلك الجزائريين من الاستفادة من خيرات فرنسا ولا يتركون يصل منها إلا الفتر القليل. فهو يقول مثلا عن جهل فرنسا لهم:" إننا لا نزال ـــ رغم القرن ـــ مجهولين عند الأمة الفرنسوية ـــ مجهولة مقاصدنا الشريفة السلمية المتركزة على روح الحق والإخاء والإخلاص، فنريد أن تعرفنا وجها لوجه وتفهمنا فهما يقطع لسان كل افاك أثيم."[2]. ويخاطب

[1] الشهاب، العدد الأول، 12 نوفمبر 1925.

[2] الشهاب، 25 فيفري 1926.

فرنسا بشأن هؤلاء الذين يفصلونهم عنها:"هؤلاء يا فرنسا يا أم الحرية أضر علينا وعليك من جميع الناس. هذه أمانينا نعرضها عليك يا فرنسا المحررة وقد فرغنا من عيد الحرية اليوم، وسننظر ما ننال منها في مثله الآتي بعد عام. وكل آت قريب"[1].

ما بعد تأسيس جمعية العلماء:

بالرغم من أن الآمال التي علقها ابن باديس على الحكومات الفرنسية المتعاقبة خلال العشرينات، وخاصة على حكومة عصبة الشمال ـــ بقيادة ادوارد هيريو لم يتحقق منها ولو القليل مما كان منتظر منها، إلا أن ذلك لم يدفعه الى اليأس أو التشدد في مواقفه اتجاه الإدارة الاستعمارية أو مقاطعتها، فقد بقي يثق في عدالة فرنسا لإنصاف الجزائريين المسلمين. أما خلال الثلاثينات فإن الفرق يكمن في أن ابن باديس اصبح رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في 05 ماي 1931، وبالتالي فهو قد اصبح شخصية عمومية وأن كل تصريح له في هذا المجال لا يعبر فقط عن موقفه الشخصي وإنما يعبر أيضا عن موقف الجمعية. ولذلك نجده منذ البداية يتقرب من السلطات الإدارية الفرنسية. ففي الخطاب الذي ألقاه في اليوم الثالث من الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء أثنى ابن باديس على مدير الشئون الأهلية السيد جان ميرانت الذي دُعي إلى الاجتماع وحتى إلى "ترأس الجمعية" فاعتذر عن ذلك وطلب من السيد عمر اسماعيل المشرف على الاجتماع إبلاغ اعتذاره إلى المجتمعين. ويعلق ابن باديس على هذا السلوك:"ولا عجب في هذه الأخلاق العالية والآداب اللطيفة من ذلك الرجل الإداري العظيم ...وذلك

[1] الشهاب، 15 جويلية 1926.

المستشرق العالم بالعربية. إذا لا شك أن ذلك يجعل له عطفا على أبنائها."[1]. ولا يتوقف هذا الثناء على مدير الشئون الأهلية فقط بل يتعدى إلى ممثلي الإدارة المحليين على مستوى الولايات الثلاث. فوفود جمعية العلماء لم تبخل أثناء جولاتها عبر القطر الجزائري بأداء واجب الزيارة للسلطات الإدارية المحلية. فبعد زيارة مسجد المدينة فغالبا ما يزور الوفد المسئولين المحليين من والي ورئيس دائرة ورئيس بلدية. وحتى بعد انقسام جمعية العلماء على نفسها في سبتمبر 1932، وبروز نوع من التوتر بين العلماء والإدارة الاستعمارية لم يتراجع هؤلاء وعلى رأسهم ابن باديس من تأييد مجهودات الحكومة العامة في التقليص من نتائج الأزمة الاقتصادية، وذلك بتوجيه نداء للأمة الجزائرية في هذا الصدد.

غير أن هذا التفاهم مع فرنسا الاستعمارية لم يدم طويلا، فبعد فترة وجيزة بدأت السلطات الإدارية تخشى من تفاقم الدعوة الإصلاحية التي تقوم بها جمعية العلماء والتي اعتبرت كدعوة وهابية أجنبية عن الجزائر. ولذلك فسرعان ما تدخلت الإدارة وأوقفت أول جريدة للجمعية وهي جريدة السنة التي كانت قد احتجت ضد بلاغي ميشال(الأمين العام لولاية الجزائر) الذي يمنع بموجبهما المصلحين من الوعظ والإرشاد بالمساجد، وغلق بعض المدارس العربية الحرة. ولذلك تمت مصادرة الجريدة في 22 جوان 1933. وإذا كان ابن باديس قد انتقد السلطات الإدارية على قراراتها ضد الجمعية وتعجب من تبدل موقف المسئولين الفرنسيين من رجال الجمعية، إلا انه لم يفقد الثقة في فرنسا الديمقراطية،

[1] الشهاب، جوان 1931.

يقول:"أفتكون في الهند جمعيات للعلماء تقوم بأعمالها بغاية الحرية والهناء عشرات من السنين تحت السلطة الإنجليزية الغاشمة وتضيق صدوركم أنتم عن تكوين جمعية واحدة للعلماء المسلمين بالجزائر تحت المبادئ الجمهورية العادلة المشعة بعلومها على الأمم فتناهضوها وهي ما تزال في المهد؟...". ويضيف ابن باديس انه مهما تبدلت اعتقاداتهم في بعض المسئولين فلن تتبدل ثقتهم بفرنسا وقانونها وانهم يثقون"بعدالة فرنسا وحرية الأمة الفرنسية وديمقراطيتها."[1].

ابن باديس وحكومة الجبهة الشعبية:

على الرغم مما لاقته جمعية العلماء خلال السنوات 1933ـــ1935 من الإدارة الاستعمارية من اضطهاد للوعاظ والمرشدين ومنعهم من التدريس في المساجد "الرسمية" ومصادرة عدة جرائد ناطقة باسم الجمعية، وغلق العديد من المدارس الحرة، ومنع وفود جمعية العلماء من التجول بحرية عبر القطر الجزائري فإن ابن باديس لم يقطع حبل الاتصال، خاصة بالحكومة الفرنسية التي كان ينتظر منها أن تعيد الأمور الى نصابها وتنصف الجمعية بعد الإجحاف الذي لحق بها خلال هذه السنوات.

وبالفعل فقد رجع له وللعديد من الشخصيات والمنظمات الجزائرية الأمل بعد نجاح الجبهة الشعبية في الانتخابات ووصولها الى الحكم في ربيع سنة 1936، خاصة وأن موريس فيوليط الذي كان قد ترك سمعة طيبة لدى الجزائريين وعند ابن باديس خاصة عند توليه الحكومة العامة كان ضمن هذه الحكومة. والحقيقة انه منذ

[1] الشريعة، العدد الأول، 17 جويلية 1933.

تجربة عصبة الشمال (Cartel des Gauches) التي علق عليها الآمال الكبيرة لم يكن ابن باديس ينتظر الإنصاف من الحكومات اليمينية التي تعاقبت بعد ذلك على الحكم. ولذلك جاءت حكومة الجبهة الشعبية بآمال جديدة طالما انتظرها الجزائريون، فكيف استقبلها ابن باديس وهل حققت هذه الحكومة ما كان ينتظره منها؟

من المعروف أنه بعد فترة قصيرة من وصول الجبهة الشعبية الى الحكم اجتمع المؤتمر الإسلامي الجزائري (جوان 1936)، الذي كان يضم اغلب المنظمات والشخصيات الجزائرية ومن بينها ابن باديس لتحديد مطالبه التي شملت الجوانب السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والدينية. وقد سافر وفد من المؤتمر الى باريس لعرض هذه المطالب على حكومة الجبهة الشعبية. وهناك عبر ابن باديس عن مطالب الجزائريين أمام مسئولي المتربول أنفسهم مصرحا أمام ليون بلوم عندما زاره الوفد :"...ولهذا لما جاءت الحكومة الشعبية وتوسمت فيها الحرية والعدالة أعطتها كل ثقتها وأعلنت سرورها بها، وأرسلت هذا الوفد، فإذا رجعنا إليها ببعض مطالبها زادت ثقتها. وإذا رجعنا بأيدينا فارغة انعكس ذلك الفرح وحصل عن انعكاسه ضرر عظيم يستغله أضدادنا وأضدادكم"[1]. والظاهر أن الآمال التي علقها ابن باديس على حكومة الجبهة الشعبية لم تقابلها نفس الاستجابة من طرف هذه الحكومة التي كانت مشكلة من عدة توجهات سياسية منها من يعارض في الأساس المس بحقوق الأوربيين في الجزائر ويرفض بالتالي الاستجابة لأدنى مطالب

[1] الشهاب، 12 أكتوبر 1936.

الجزائريين. ونتيجة لذلك فقد بدأ اليأس يدب في نفس ابن باديس منذ هذه الرحلة إلى باريس. يقول في تعليقه على حكومة الجبهة الشعبية :"فالجبهة الشعبية تعتمد في بقائها على الراديكاليين، وهؤلاء ما يزال فيهم من عرفنا سياستهم الاستعمارية في العهد القديم...فكنت أعتقد أن المطالب ستتأخر وأن هذا الصيف لا يكون فيه شيء..."[1].

وأمام تماطل حكومة الجبهة الشعبية في الاستجابة لبعض المطالب على الأقل التي قدمها وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري والصعوبات التي أصبحت تتعرض لها هذه الحكومة من جراء تفكك الائتلاف المشكلة منه بدأ ابن باديس يعبر صراحة عن يأسه من وعود الحكومات الفرنسية المتعاقبة ومن بينها الوعود التي أعطتها الجبهة الشعبية. فتحت عنوان "هل آن اليأس من فرنسا؟" يقول:"والجزائر تنخدع وتطمع، ويمكن أن يطول انخداعها ويستمر طمعها، ويمكن أن يتجلى لها سراب الغرور فتقلع عن الانخداع، وتقطع حبل الطمع، وتتصل باليأس وما يثمره اليأس ويقتضيه[2]. وتحت عنوان "اليأس بعد الرجاء" يتطرق الى مختلف الوعود التي أعطيت للجزائريين :"ولقد كان صاحب هذه المجلة ـــ ولايزال ـــ يرى أنه لا يحق للأمة أن تستمر على السياسة القديمة، سياسة المطالبة والانتظار، إذ قد ظهرت النوايا جلية واضحة، وتحقق الناس أجمعون أن وعود هذه الحكومة كوعود الحكومة السالفة،

[1] الشهاب، أكتوبر 1936.

[2] الشهاب، أوت 1937.

إنما هي من فصيلة الوعود التي أمطرت القطر الجزائري منذ أيام الإمبراطورية الى الآن : وعود هي السراب بعينه."[1].

ومع نهاية سنة 1937 صعد ابن باديس من لهجته اتجاه حكومة الجبهة الشعبية. فبعد انعقاد المؤتمر الإسلامي الثاني (أوت 1937) وجه بصفته رئيسا للمؤتمر نداء الى نواب المجالس النيابية يطالبهم بالتخلي عن مناصبهم وعدم العودة إليها ما لم تتحقق المساواة[2]. وقد عبر ابن باديس عن يأسه من جديد من وعود حكومة الجبهة الشعبية أثناء الخطاب الذي ألقاه في الاجتماع العام لجمعية العلماء (سبتمبر 1937) والذي أظهر فيه خيبة الأمل الذي كان قد علقه عليها سنة 1936: :"لقد كنت في خطاب السنة الماضية علقت رجاء الجمعية على الحكومة الشعبية وحسنت الظن بها. وأنا أعلن اليوم ـــ مع الأسف المرـــ خيبة ذلك الظن ووهن ذلك الرجاء فحسبنا إيماننا باللّه وثقتنا بأنفسنا فذلك ـــواللّه ـــ أجدى لنا وأعود بالخير علينا."[3]. والظاهر أن ابن باديس أصبح في هذه المرة لا يعلق الكثير من الأمل على فرنسا كما تعود على ذلك من قبل حين كان يطالبها باسم عدالتها ومبادئها وشعاراتها الديمقراطية بإنصافهم وإنما أصبح يعلق الأمل على نفسه وعلى الجزائريين. وعلى عكس مواقفه السابقة التي كان يفرق فيها دائما بين فرنسيو الجزائر أصحاب النزعة الاستعمارية وفرنسيو فرنسا الذين كان يستنجد بهم كلما رأى الظلم والإجحاف في حق الجزائريين فإنه في هذه المرة أصبح يعتقد أن هناك

---

[1] الشهاب، سبتمبر 1937.

[2] الشهاب، سبتمبر 1937.

[3] الشهاب، أكتوبر 1937

تحالف وتفاهم بين السياسيين الفرنسيين في المتربول مع مستعمري الجزائر، يقول :"أما فرانسويو الاستعمار بالجزائر، والذين يستخدمون فرنسا لتفوقهم ودوام عنوهم وتسلطهم، ولا تهمهم فرنسا بقدر ما تهمهم مصالحهم، فهؤلاء قد شغلهم التفكير في وسائل الضغط والشدة ضد الجزائريين ـــ وإخوانهم ـــ عن كل تفكير آخر، رغم مشاهدتهم لهذا الخطر واضطرابهم له. وأما الرجال المسئولون فلا شك أنهم مهتمون الاهتمام كله بمقاومة ذلك الفصل وبالمحافظة على الجزائر ـــ وأختيها ـــ إذا وقع. غير أننا ـــ والعجب ملء أنفسنا ـــ لا نسمع في الخارج إلا ما يوافق ـــ في الأكثر ـــ نظرية أولئك الرجعيين الاستعماريين الذين أعمتهم مصالحهم الخاصة عن كل شيء، حتى كأن السياسة الفرنسية كلها انصبغت بصبغتهم وأصبحت تحت تأثيرهم." [1].

نحو مقاطعة فرنسا الاستعمارية والتمسك بآمال فرنسا الديمقراطية:

تمثل الفترة الأخيرة ما قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية فترة صعبة في العلاقات بين جمعية العلماء والإدارة الاستعمارية. لكن بالرغم من توتر هذه العلاقات وحتى انقطاعها مع السلطات الفرنسية بباريس إلا أن ابن باديس بقي يسبح في نوع من المثالية، معتقدا انه إذا خاب ظنه في الحكومات الفرنسية فإنه لا يخيب في مبادئ الثورة الفرنسية وشعاراتها. ففي بداية سنة 1938 وبمناسبة السنة الرابعة عشر للشهاب، وكعادة افتتاحيات جرائد الجمعية الأخرى أعاد ابن باديس التذكير بالشعار الذي أطلقه عند تأسيسه للمنتقد :"أعلن (الشهاب) من أول ـــ و(المنتقد)

[1] الشهاب، نوفمبر 1937.

الشهيد من قبله ــ أنه يعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرانسا الديمقراطية". ولكنه أكد أيضا على خصائص هذه الأمة الجزائرية التي لا يمكنها الاندماج في فرنسا:"فوضع الأمة الجزائرية بازاء الأمة الفرنسية، إذ كل منهما لها ذاتيتها ومقوماتها ومميزاتها القلبية والعقلية والنفسية والتاريخية، التي يستحيل معها أن تندمج في أمة أخرى، وضعها بإزائها على أنها تابعة لها مرتبطة بها محتاجة الى مساعدتها."[1]

ومع أن بداية سنة 1938 شهدت هجوما كبيرا من طرف الإدارة الاستعمارية ضد جمعية العلماء، تمثل خاصة في مرسوم 13 جانفي الذي يفرض رقابة صارمة على النوادي الثقافية ومرسوم 08 مارس الذي يحد من حرية التعليم العربي الحر، إلا أن ابن باديس بقي يكن بعض الاحترام والاعتراف لفرنسا الديمقراطية ومبادئ ثورتها. ولذلك نجده يشارك في الاحتفال الذي نظمته الواجهة الشعبية بقسنطينة بمناسبة يوم 14 جويلية عيد الحرية وسقوط الباستيل. وقد ألقى ابن باديس بهذه المناسبة خطابا جاء فيه:"إن هذا العيد عيد الحرية الإنسانية وليس عيد سياسة من السياسات، ولا حزب من الأحزاب، ولهذا يحق لي أن أمثل فيه جمعية العلماء، وهي جمعية علمية تهذيبية بعيدة عن السياسة كلها.". وأضاف في فقرة أخرى ردا على بعض من يتهمونه بالتعصب وبمعاداة فرنسا مؤكدا:"إننا هنا لنكذب بقوة وصرامة بشمم عربي كل من يقول عنا أننا ضد فرنسا ــ لسنا ضد فرنسا وإنما نحن ضد أضداد الحرية، وأعداء أعداء الحرية. ونقاوم من يقاوم الحرية، سواء كان من أهل البرانيس أو من أهل البرانيط.".[2] والحقيقة أن فكرة عداوته لفرنسا هذه قد شاعت

---

[1] الشهاب، 14 مارس 1938.

[2] البصائر، 22 جويلية 1938.

كثيرا عن ابن باديس، وخاصة بعد كلمته الصريحة التي رد فيها على فرحات عباس مؤكدا فيها وجود أمة جزائرية بكل خصائصها. والأكيد أن الصحف الموالية للأوساط الاستعمارية قد ساهمت في نشر هذه الفكرة حتى تقنع الحكومة الفرنسية بعدم الاستجابة لمطالب الجزائريين. ولذلك فبمناسبة حضوره حفل أقيم بمناسبة المولد النبوي الشريف بمدينة بجاية طرح عليه أحد المعلمين السؤال الآتي: أيها الأستاذ يقال أنك عدو فرنسا؟ فأجابه ابن باديس:"كلا أحرار فرنسا لا يقولون هذا ولا يعتقدونه. أنا لست عدو لفرد من الأفراد ولا لحزب من الأحزاب ولا لجنس من الأجناس ولا لدولة من الدول. أنا مسلم فإسلامي يمنعني من أن أكون عدو لجنس من الأجناس وإنما أنا عدو الظلم والاستبداد وعدو الجهل والجمود من أي فرد ومن أي جنس. أقاوم الظالم ولو كان قريبا مسلما وأنصر المظلوم ولو كان بعيدا غير مسلم."[1].

وإذا كان ابن باديس قد احتفظ في ذهنه بصورة مثالية لفرنسا الى آخر المطاف إلا أن ذلك لم يمنعه من تشديد موقفه من الحكومة الفرنسية عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية بعد يأسه من وعود الحكومات الفرنسية المتعاقبة. فقد كانت جمعية العلماء عادة ما ترفع في اجتماعاتها السنوية مطالبها الى السلطات الاستعمارية بالجزائر والى الحكومة الفرنسية، غير انه في الاجتماع العام لسنة 1938 رفض ابن باديس التقدم بأية شكوى واعتمد مبدأ السكوت، مادام كما قال أن الاحتجاجات السابقة لم تأت بفائدة. والمعروف أن الشيخ الطيب العقبي كان يأمل توجيه رسالة

[1] البصائر، 1 جويلية 1938.

تأييد للحكومة الفرنسية اثر ظهور البوادر الأولى للحرب، غير أن أغلبية العلماء رفضوا ذلك وفضلوا السكوت.

غير أن هذه المقاطعة لم تمنع ابن باديس من التمسك بالمبادئ التي كان قد أعلن عنها منذ العشرينات، وهي أنه بالرغم من فقد ثقته في سياسة الحكومة الفرنسية إلا أنه لا يفقد الأمل في المبادئ التي جاءت بها الثورة الفرنسية. ولذلك نجده في سنة 1939 يشيد بالثورة الفرنسية التي حطمت سجن الباستيل وأطلقت سراح الأحرار منه. وهو في ذلك يريد أن يقارن بين الباستيل الذي مرت 150 سنة على تحطيمه وسجن آخر بالجزائر وهو سجن الكدية الذي كان بعض رجال الجمعية يرزحون ما بين جدرانه. يقول ابن باديس عن ذلك:"الباستيل وما أدراك ما الباستيل وما أحوج الشعوب المستضعفة أن تعرف تاريخ الباستيل ونهاية الباستيل هو حصن منيع اتخذه ملوك فرنسا المستبدون سجنا يلقون فيه الأحرار المفكرين، فيقضون أيامهم في ظلمات أقبائه حتى يأتي عليهم الموت، يلقونهم في غيابات هذا السجن الرهيب دون محاكمة ولا جرم معلوم. وفي 14 جويلية سنة 1789 هاجم الشعب الفرنسي الثائر هذا الحصن وضربه بالمدافع واستولى عليه ومثل بحراسه شر تمثيل وأطلق سراح من فيه. كان سقوط هذا السجن رمزا لسلطة الشعب وفوز الأحرار، كما كان قيامه رمزا لاستبداد الملوك وخنق الحرية."[1]

[1] البصائر، 11 أوت 1939.